باب المكاتبة والمذاكرة

Causerie et Correspondance.

خيالات الصراف !...

جاء في « صدى الوطن » الجريدة البغدادية الجريئة في عددها الـ ١٨ الصادر في ١٥ ك ١ سنة ١٩٣٠ ما هذا نصه بحروفه :

«بالرغم مما عرف به احمد حامد الصراف من سعة الخيال وكثرة الاختلاق فلم يكن معروفاً عنه بلوغ هذه الدرجة في تصوير حوادث ليس لها اثر إلا في مخيلات الروائيين والقصصيين ونحسب ان الصراف منهم . ان لم يكن يفوتهم في متانة « الرتوش » ، الذي يضعه على القصة ، فيخرجها حقيقة واقعة تنطلي على الذين لا يعرفون من اخلاق الصراف إلا حديثه الحلو وابتسامته المصطنعة ، كما انطلى على ادباء القدس ، « ومحرري جريدة الحياة » حديث خرافة ، لا نمري اذا كان وقع في العراق في هذا العصر ، او انه يرجع بذاكرته الى العصور السابقة ونحن ننشر هذه القطعة « للفن » الذي فيها ، ذلك الفن الذي عرف به الصراف واليكها :

« نظمت عقدنا جلسة ادبية وكنا اربعة : اديب العربية استاذنا النشاشيبي ، والاديب العراقي احمد حامد الصراف ، والاستاذ تيسير الدوجي ، وكاتب هذه السطور . فكانت هناك خبرتان : بيان النشاشيبي ، واديب العراق . وما لنا من سكرين من بد . وتحدث الاستاذ الصراف عن ابي نواس والزهاوي بلهجته العراقية الجميلة ، راوياً لنا هذه القصة الرائعة . قال امتعنا الله بادبه : بينما كان احد الحفارين ينقب في ضاحية من ضواحي بغداد ، اذا به يعثر على حجر رخامي طويل ، ازال ما كان عالقاً عليه من التراب ، فرأى عليها خطاً كوفياً فقرأ الرؤساء الكتابة ، واذا هي : « هـذا قبر الحسن بن هانيء المشهور بأبي نواس » .

فاخبروا اولي الامر فامر هؤلاء بالاحتفاظ بهذا الكنز الثمين ، حتى يقوموا باحياء ذكرى ابي نواس العزيزة ، ذكرى المرح ، والهوى ، والشعر ، والشباب.

وما سمع الزهاوي شيخ الشعراء وفيلسوفهم ، بهذا النبأ حتى دوى صوته في اجواء بغداد ، فرددته النوادي الادبية العراقية ، واذا باربعين شخصاً بين اديب وشاعر ، يلتفون حول شيخهم ، فتقدمهم قائلا : « يجب ان نحج الى قبر النواسي على الاقدام » . وزحف هذا الجمع ، وعلى رأسهم بلبل الرافدين وشيخ الصناعتين ، وهو الشيخ الوقور الجليل ، الذي رمى الزمان رجله بالشلل ، بعد ما غمره بالارزاء ، فما لين منه قناة صلبة ، ولا صوح الالم والشجن نفسه ، فهي ما برحت غضة ريانة (كذا) بالاحلام والاماني ، كنفس فتى في ربعان الشباب ، وفجر الحياة .

وكان هذا الزحف المجيد ، اقدس تعظيم ، واكبر تمجيد ، فاذا اعتور الزهاوي نصب ، جدد نشاطه ، وقوته المحطمة ، ولم شبابه المتهدم ، باستراحته على كرسي محمول مع القوم ؛ ثم عاود المسير مع الجمع ، وما ان بلغوا المقام ، حتى وقف السفر المحتشد حوالي القبر خشعاً ابصارهم ، وشعروا كأن عطر المكان ، أنعم نواحي نفوسهم رقة ، وحناناً ، وخيل اليهم ان شعر النواسي لم يزل ينفح عطراً واريجاً دونه عطر العرائس ، وأريج الازهار .

وانتصب فيلسوف العراق ، وشاعرها الكبير ، واقفاً على حافة الرمس ، منشداً شعره الحي ، مهتاجاً ، موصياً ان يدفن والنواسي جنباً الى جنب ، وكان يلمح الراؤون حينذاك ، في غضون طلعته البهية ، صور الهوى العافي ، ورؤى الشباب الداثر ، ومتسع الماضي الزائل » .

وانتهى استاذنا الصراف من قصته الممتعة ، وغرقنا في لذة ونشوة ، وارسلنا تحية الاجلال ، والحب ، الى الزهاوي ، شيخ الشعراء ، وفيلسوف الشعراء » اه.

الى « يقظان »

ابتلينا برجل كانت مهنة آبائه نقر الرخام فاستصعبها فعدل عنها الى معالجة الادب ، ولم يحتفظ من تلك الصناعة إلّا بالنقر ، نقر الناس ، حيثما صادفهم ، وقد اغرم بمطالعة مجلتنا اذ يقف على كل ما يكتب فيها مفليا كل عبارة من

عباراتها ، فاذا رأى فيها ما ينقر ، نقرة ، لا بمنقار الطائر ، بل بمنقار الرخام (المعروف عند العوام المتتركين بالمرمرجي) . وقد عالج مراراً ردوداً على هذه المجلة فانقلبت عليه ويلا وثبوراً ، فكانت كل نقرة ردت اليه اذته لانها ردت الى صدره من باب الارتكاس . فكان ينتبه من غفلته ، او نومته ، فيسكت قابعاً زمناً في مكمنه . وقد عاد في ٢٤ ايلول الى النقر مرة اخرى ، وخيل اليه هذه الدفعة ان نقرته هذه تفلق صفاتنا وتظهر غلبته وفوزه ، اذ يدعي ان البحث الذي يتعرض له هذه الكرة هو من خصائصه التي تفرد بها دون غيره ولهذا وقع رده بقوله : « يقظان » . فما وقع نظرنا على العنوان الذي وسم به مقاله وهو « كلمة « توراة » وشطط بعضهم » حتى عرفنا صاحبه . ولما رأينا في ذيله « يقظان » قلنا : هذا صاحبنا النكرة اذ ليس في بلادنا ، من المتبحرين ، المتصلفين ، المعجبين بانفسهم سوى هذا الرجل المطرمذ . ولما وقفنا على كلامه قلنا : قد برز الثعيلب من مكمنه :

عنون هذا الرجل مقاله بما يشم منه رائحة جهل الغير وعلمه الشهير . وذيله بما يشعر انه هو « اليقظان » ومن سواه غافل نائم . فهل بعد هذا الادعاء الفارغ ادعاء افرغ منه ؟

قال الرجل النكرة عن مقالتنا « ترجمات التوراة » (لغة العرب ٨ : ٦٦٥ وما يليها) : « للمقال عنوان عربي وهو : « ترجمات التوراة » وعنوان فرنسي وهو : Les Versions Arabes de la Bible فقد جاء العنوان الفرنجي صحيحاً ... وظهر العنوان العربي بعيداً عن الصواب لكونه اوسع من الموضوع . فان عبارة « ترجمات التوراة » لا تعني الترجمات العربية بل جميع الترجمات الى مختلف اللغات ... وهذا من الغرابة بمكان في من يدعي « الامامة والعصمة في اللغة العربية » ... ثم هناك شطط آخر ، بل ظلال (كذا) علمي (كذا) اقبح وهو (كذا) ان كلمة « توراة » اطلقت في المقال بنوع لا تنطبق معه على المسمى المراد ولا تقابل لفظة Bible ... توراة تعني ... كتب موسى الخمسة واحياناً من باب الاطلاق على (كذا) جميع كتب (اليهود) المنزلة . اما عند المسيحيين فالاسفار الالهية مقسومة الى قسمين كبيرين ... العهد القديم . والعهد الجديد . . ويطلق

على « العهدين معاً » اسم شامل هو « الكتاب » او «الكتاب المقدس» او «الكتب المقدسة» . وعند الغربيين يقال : la Bible او L'Ecritnre Sainte .

هذا ملخص ماجاء في كلام النقار النفاج وقد حذفنا منه عبارات السب والشتم والادعاء الباطل والصلف والعجب تاركيها لنفسه . فنقول :

قوله « التوراة » غير « الكتاب » وهذا غير تلك يكذبه جميع علماء العرب (غير ملتفتين الى علماء اليهود والغربيين والارمنيين) اذ هذا الامر يخرجنا عن موضوعنا . ونحن نذكر هنا الشواهد مفصلة ، لا كما يفعل هو إذ ينكر الامور ولا يستشهد عالماً ولا كاتباً ولا ولا ولا .

اما ان التوراة هي الكتاب والكتاب هو التوراة خلافاً لما زعم ، فصريح الورود في كتب التفسير . قال ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) في كتابه جامع البيان ٣ : ١٤٥ من طبعة بولاق الاميرية في سنة ١٣٢٤ في تأويل هذه الآية : « الم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » ... اولى الاقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب ان يقال ان الله جل ثناؤه اخبر عن طائفة من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله (صلعم) في عهده ممن قد اوتي علماً بالتوراة انهم دعوا الى «كتاب الله» الذي كانوا يقرون انه من عند الله وهو «التوراة» في بعض ماتنازعوا فيه ، هم ورسول الله (صلعم) ... وانما قلنا ان ذلك الكتاب هو التوراة لانهم كانوا بالقرآن مكذبين وبالتوراة بزعمهم مصدقين ...» اه وقد كرر مثل هذا التعبير مراراً لاتحصى مسمياً الكتاب التوراة والتوراة الكتاب . وقال قبل ذلك تفسيراً لهذه الاية : « ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق » يعني بذلك جل ثناؤه : ان الذين يكفرون بآيات الله اي يجحدون حجج الله واعلامه فيكذبون بها من اهل الكتابين التوراة والانجيل » اه (٣:١٤٤).

فقد رأيت من هذا النص الجلي ان التوراة هي الكتاب والانجيل هو الكتاب . فالكتاب اسم جامع يطلق على كل من العهدين القديم والجديد . كما ان لفظة « التوراة » وحدها تعني ذلك عند النصارى على مافي دائرة المعارف للبستاني .

فالطبري مسلم من اهل المائة الرابعة للهجرة « والنكرة » من ابناء

النصارى في المائة العشرين . المسلم عرف اصطلاح اليهود والنصارى . والمسيحي جهل مصطلح آبائه واجداده . فماذا يحكم في رجل يتعرض لما لا يعنيه . أليس من الحق ان نقول له : ليس هـذا بعشك فادرجي ، وان انفك في السماء وا ... في الماء ؟

هذا في نظر اهل التفسير والتأويل من الاقدمين . واما اللغويون من « العرب » (لا من الدخلاء الشعوبية) فلا يقولون : إلّا قولهم . جاء في تاج العروس في مادة ك ت ب : « الكتاب : التوراة . وكذا في القاموس وجميع كتب اللغة لاصحابها المسلمين. وكذا يقال عن النصارى . قال في محيط المحيط في مادة ت و ر : التوراة والتورية : اسفار موسى الخمسة معرب ثورة بالعبرانية ومعناها شريعة ووصية ج توراة (كذا) وتوريات . ويطلق على العهد القديم كله وربما اطلقت على مجموع العهدين . اه

وفي الفرائد الدرية في اللغتين الفرنسية والعربية للاب بلو اليسوعي جاءت كلمة Bible منقولة الى العربية هكذا : التوراة ، الكتاب المقدس . اه . ومثل هذه الشواهد لاتعد ولا تحصى ، وانما اجتزأنا بما ذكرنا تخفيفاً لهذا العبء على المطالع ، فمن انت يا ايها النكرة بعد هؤلاء العلماء والاعلام ؟ ولو كان لك ادنى غيرة على شرفك وشرف الرتبة التي تنتسب اليها لكسرت قلمك الى أبد الدهر ولعدت الى مهنة ابائك الاولى التي لاتزال تعطف عليها بالفطرة التي فطرت عليها ، ولما عالجت بحثاً لست انت من اهله في شيء كما اتضح سابقاً مما تعرضت له من الموضوعات ، وما تعرضت له الآن فانكشفت عيوبك للجميع وبان ما انت عليه من الجهل والاختلاط . إذن ليس هذا بعشك فادرجي » .

فما كان اغناك عن هذه الفضيحة التي فضحت بها نفسك عند قدومك الى زورائنا فشابهت بعملك هذا عمل الظربان في الغنم .

واما مخالفتنا بين العنوانين العربي والافرنجي في مانحرره ويحرره غيرنا ، فلان العنوان العربي للعرب الذين يفهمون من ادنى اشارة ، والعنوان الافرنجي هو لابناء الغرب ولمن كان غليظ الفهم . والعربي يفهم اذا قلنا له : اترجم لك كلام هذا الاجنبي . اذ معناه : أنقله لك بلسان عدنان . فلا حاجة لنا بعد ذلك

الى ان نزيده ايضاحاً فنقول له : اترجم لك كلام هذا الاجنبي الى اللسان العربي. لكن هذا الامر وامثاله تفوت هذا الشعوبي، الغريب العنصر ، والدم ، واللسان، فلا عتب علينا بعد هذا إن قلنا :

ولو اني بليت بهاشـمي خؤولتـه بنو عبد المدان
لهان علي ما القى ولكن تعالوا وانظروا بمن ابتلاني

الخلاصة

جاءت التوراة عند اليهود بمعنى اسفار موسى الخمسة ، ثم اطلقوها بعد ذلك على اسفار الانبياء وجميع الكتب المنزلة عندهم ، ولما جاء النصارى اطلقوها على اسفارهم ايضاً ، لانهم يعتبرون اسفار اليهود واسفارهم كتاباً واحداً مقسوماً الى عهدين قديم وجديد . وهذا رأي علماء المسلمين وعلماء النصارى ، اذ عرفوا التوراة بالكتاب والكتاب بالتوراة . ومن كان جاهلا هذه الامور التمهيدية فهو ابتر لا غير .

في ٢٤ ايلول ١٩٣٠

نظرات

بينما كنت اطالع بعض المجلدات من لغة العرب وقع ناظري على هنوات ، اذكرها في مايلي مع تصحيحها ، كما اورد بعض الفوائد ايضاً :

ذكر في ص: ٣٣٤ اسماء مطابع بغداد ولم يذكر في ضمنها : الاداب، والمصرية.

(ل . ع) لم تكونا يومئذ وكانتا اتخذتا اسمين آخرين فلا معنى لهذه الملاحظة .

وفي ص ٣٦٥ س ١٨ : (ولكن كيف تأتى ان يهابه اناس لم يعاصروه) ، هذه العبارة سقيمة ولم يتحصل منها معنى مقبول .

(ل .ع) العبارة خاليةمن كل غبار ولا تعلم وجه الاعتراض اذ معناها كيف اتفق ان يهابه اناس لم يعاصروه.

وفي السطر العشرين من الصفحة المذكورة : « وما علاقة ذلك في البلاغة» والفصيح : وما علاقة ذلك بالبلاغة .

(ل . ع) هذا الغلط مصحح في باب التصويبات ص ١٤٢ من الفهارس .

سبزوار (ايران) محمد مهدي العلوي